

السوري

من خطبة نلت في جمعية الشبيبة السورية في المدرسة الكلية ببيروت

يا زمان السعود والافلاح
أبتأتاً طلقت هذي النواحي
هل عزمت المقام في أوربا
واقمت المال المعظم رباً
هل رأيت البلاد ثمة اخصب
هل رأيت السكان في الفضل ارغب
أي شيء في الغرب عنا ثناكا
كل نفس منا تروم رضاكا
يا زمان الفلاح بالله قل لي
من رأى فيك غير فضل وبلى
انساد في الارض ام في بنيا
حالة لا أرى التوسع فيها
آن يا اهل موطني ان نجانب
غيرنا شدة للسير الركائب
أي نوز للقاصير المتواخي
ابنيد الفريق كثر الصراخ

ايها السادة والسيدات

يعلم الله وبضعة من خلقه اني ما اخذت على نفسي الكلام عن السوري في هذه الليلة الاً
قياماً بطلب الجمعية . لانه مهما كان هذا الموضوع من الاهمية في نظر التاريخ والسعة في
جانب الحقائق فهو تافه مبتذل في نظر الكثيرين ضيق المجال على الباحثين الصادقين والحالة
كما تعرفونها انتم وانا . وفوق ذلك ان في المثل لدى هيئة سورية والتعريض او التصريح
ببعض مساوئها من خاطب يفتي رضاها لخرج لا يعرفه الاً من عاناه . يسمع البعض ما لا
يروقه ولا ينطبق على متظلم فيتقبضون ويشاؤونون بالاصفاء غير ذاكري القول المأثور "لعل"
له عذراً وانت تعلم" والبعض لا يقف عند حد التهاون بالاصفاء بل يتعداه الى سهل

المبالغة في التخطئة والنفيد — وهذه خلة شائعة بين الكثيرين فهم ينظرون الى القائل لا الى المقول ويحكمون كما يوافق احواءهم لا كما يوافق الحقيقة

وعليه فان الداعي المائل لديكم قد تدير كل هذه الاشياء فرأى شيق الموضوع وتفاعته وخطر الخوض فيه واقدم بعد كل ذلك عليه لا عن هوان توعده نسل عليه بل ثقة بان في الهيئة الحاضرة من يعتبرون الحقيقة وما قالت واملاً بايراد شيء مفيد ولو لم يكن على جانب عظيم من الطلاوة . هذا ولم اتوخ في خطابي البحث التاريخي عن السوري ولم اتم بتفصيل ما كان عليه في عهد الفينيقيين والكنعانيين والاراميين والاسرائيليين واليونان والرومان والعرب . ومن شاء ان يطلع على شيء من ذلك فليراجع التواريخ فيرى ما لا ينطق به الآن لخرج الموقف وضيق المقام ويقف على ما كانت عليه تجارة السوريين وزراعتهم وصناعاتهم وامارتهم وما بلغوا من العز والمؤدد وما اوردوا واصدروا وعلموا وحكموا وكيف حكموا وبكفة يرى درجتهم من الحضارة والعمران — احاديث يزوقنا سماعها وترقص لها قلوبنا لاتنا نرى فيها ما ينطق عن عظمة اسلافنا الغابرين فتلتقي بذكر الماضي ولا نمنع الا في محاسن نيشغلنا عن الاهتمام بالحاضر والنظر في تلافى مساوئ

وطالما اسمعنا الخطباء والكتاب وصف حالتنا الغابرة وبرزوها بمجلة من المعاني وحرك من المياني يعجز عن الايمان بمثلا الكثيرون حتى اصبح قول بعضهم (بلادنا احسن البقاع ثربة وهواء . . . كنا اهل السطوة غير معارضين . . . الى آخر ما هنالك) مأثوراً نشاقله الاسن والاقلام فيا ايها العاقلون ما الفائدة من ذكر الغابر اذا كان يزيد الصدر ضيقاً والنفس كدّاً . وما لنا وللااضي ولا مرد له . ولم تغفل النظر في الحاضر وحسن المستقبل فيه . ماذا ينفعنا التياهي بالجدود واصل الفنى ما قد حصل . كفانا تيجعاً بذكر الماضي والمباعاة بالسلف فنحن في عمر لا يطول فيه رواج البضائع المستعارة ولا تطلع فيه الآراء المتقلبة ولا ينفع فيه الانتقاد الاعمى سبق القول ان مدار الكلام البلية سيكون على السوري ابن القرن التاسع عشر وما بعده لا ابن القرون الخوالي وقد اتخذت الموضوع على اطلاقه لا تم بكل مهم من اطرافه واظهر السوري في منظره بجل تبين فيه محاسنه ومساوئه فاحل عنه اللوم من جهة واكربه من اخرى حتى يجلي المرمى الذي اتوخاه وما هو الا نبيل ان شاء الله

السوري ابن القرن التاسع عشر غريب الاطرار والصفات . ترى فيه ما يدل على تسلسله من الشعوب السامية حمزوجة بما اكتسبه قديماً وحديثاً من مخالطة الشعوب الآرية فهو دين بالطبع يخاف الله حذر زكناً مقرانه بكرم النيف تنوع يميل الى الدعة والراحة ومقدام عند

الحاجة فادر على الكد والعمل بأبى الهوان ويضرب في الآفاق تغيثاً . فلو تيسر له' والحالات
هذه ان يتربى التربية العلية وبتهذب التهذيب الصحيح وينسج لتواه' العقلية نبجلاً تظهر فيه
نئال السبقه في كل ميدان وادهش الاقران بمقدرته ومآتيه
ولما اصبح السوري منذ الربع الاخير من القرن الماضي الى الآن حلف الاسفار والغرب
والمخاطرة حتى قال فيه احد الشعراء المصريين

بضيق على السوري رحبُ بلادو فتركبُ للاهوال ما هو راكبه
قلبي الغيور على الوطنية وخاف الدائب في جمع الكلفة وتأفف التقيوت على مصالح البلاد لانهم
رأوا فيه انتزاحه ضياع الوطنية وتفرق الكلفة وتأخرأ في الزراعة والصناعة والتوالد . ثم قام ولادة
الامور وشلدوا الاوامر على ظالبي الانتزاح وضيقوا في وجوههم مبل السفر وتهددوهم بالمقربات
وعاقبوهم ولكنهم كانوا كأنهم يضربون في حديد بارد فواظب السوري على السفر والغرب
وطلب الرزق تحت كل جو من جواء المعمور واصبح السوربون اشتاتاً بين كل امة ولان حتى
كأن نبوة الكتاب شملت الامرائيليين والسوريين ولا غرو فكللاما من الاصل السامي
وكان الانتزاح بادىء بدء يتناول السوري التسيه ضاقت عليه موارد الرزق وتهددو'
الاملاق وما زال كذلك حتى كثر عدد الثبان التفرجين في المدارس العالية الحاصلين على
درجات التهذيب الواقفين على حقوق الواجبات وواجبات الحقوق المتأهلين لتولي المناصب
ومعاطاة الاعمال فخرجت عن استيعابهم البلاد لا بل خرجت صدورهم عن البقاء فيها
وليس لهم من المصالح ما يكفل لهم حسن المعيشة وهناء البال . فسافروا مع من سافر ودأبوا
مع من دأب وجروا مع من جرى وتوظفوا مع من توظف ودرسوا مع من درس وكانت
النتيجة انهم سيتوا من جوارهم حتى صار واحدنا يتوق الى السفر تشبهاً بالكرام الذين سبقوه
ولسان حاله يشد .

بلاديه لا ارى فيك الاقامه	لمن يهوى التعز و الكرامه
فان ازمعت' عنك البين يوماً	فقولي لي ترافقت السلامه
ابين' ولا جفاً نيكون' بيني	مواصله' تطول' بلا سامه
ابين' ورسحك اغيوب' بيني	على لوح التمراد الى التيامه
اريد لك العلى حتى تصيريه	على وجنات هذى الارض شامه
اريد الحق ان يسي حليفاً	لارباب المسكانه والزعامه
اريد العلم ان يجري عبوناً	فيثني كلنا منه اوامه

أريد النور ان يتبدّ فينا
أريد أريد ان تقدي بلاد
وان طالت نواي فلا نقولي
فنفسي حيثما امضي اراها
أأنى جوك الصافي ومنه
فكم راقبت فيو البدر يجري
وصنيت القديم تحوطنه
ويجر الروم منبسط الحيا
مظاهر تهج الصب المعنى
فيولو بعضها عنه شجابه
وكم احيت ساعات طرالا
وكان بجانب خل اتيس
يادلني المنى ويقول صبرا

ذربي يا بلاديه للشاني
اسير الى اقاصي الارض وحدي
لقد غرت بينك بي طباعا
عزيز النفس التي كل صعب
يهون علي ان التي المنايا
يهون علي ان اسمي لرزقي
ولا من يحبني معي اعباطا

ولامراء ان انتزاع السوري كان يادى بدو بحكم الاضطراب وكلما كان يحكم الاضطراب
لا يوجه عليه اللوم والتفديد . وعندي (ان كان لي عند) ان هذا الانتزاع سيطول امره الى
ما شاء الله وريم الكثيرين كما هو مشاهد في ايامنا الحاضرة ولا ينقص مدله الا اذا استغنت
البلاد وكثرت فيها موارد الرزق والتميش وهذا ما لا يعيت زمانه الا من يديده ملكوت
السموات والارض

اذا سافر ايها السوري النشط ما استطعت الى السرفسبلا وانزع الى اية بلاد اردت
على شرط ان تفع نصب عينيك سوريا العزيزة بجبالها وحزونها وهضابها وبطاحها وعيونها

وانهارها واشجارها وانماها ونحن الى شمسها وقرها ونجومها وتذكر صيفها وخريفها وشتاءها وريبعها
وتشوق الى مسقط راسك الى العود الى مزارع طفولتك وحبوتك وفوتك الى مقام اهلك
وذوي قوابتك . وحتى يسر لك الله رزقا واحرزت من تغربك مالا يسهل لك المعيشة في
قومك نعد الى بلادك مكللا بالنور والنجاح حاملا اليها الاخبارات المفيدة وعش فيها واسم
لتعزيزها فانها في اشد الحاجة اليك ولا تفلح الا بك وبامثالك من رجال المال والاعمال
واما ما يتنادي به بعض اهل الدين من ترك المال وترك السعي له فانما يمتنون به شدة
الولوع بالمال وتفصيحة قوى النفس جملة لجرد تحصيله واذخاره والا أن كانوا يمتنون ترك السعي
لتحصيل المال الذي هو خير الذرائع لتربية البلاد فلا شك انهم يتعسفون في اقوالهم تعسفاً
والآخذون بكلامهم مغدوعون او مخادعون

فيا ايها السوري يا من يتشكى من ضيق الاحوال ولسان حاله يقول

” ايشكي الفقر غاديتا ورائحتا ونحن نشي على ارض من الذهب “

دع التشكي من الاحوال واعتقد بحكم بعضهم ان الرجال توجد الاحوال وجد واداب
وأقم نفسك حالاً خاصة واملاًها بالحركات ومقاييل الحركة فليكن لسكون الليل واسترجاع
القوى بالراحة والنوم واذكر ان الامانة اس النجاح فاتخذها مبدأ راسخاً في اعمالك ومعاملاتك
وانا الكفيل لك بحسن الحال وانقراج الضيق

ومن نكد الطالع ان سوريا واقعة في نقطة متوسطة بين الامم التي تغلبت على المعمور
بحيث يسهل الوصول اليها والجلالة عنها فكانت شوكاً قائداً شرقياً او غربياً يزحف
عليها ويمجناحها وينكل باهلها ثم يضرب عليهم الجزية ويرتجل وهكذا تغلب عليها الاشوريون
والبابليون والفرس والمصريون واليونان والرومان والعرب واتابها الحروب وثار فيها الفتن
ومع هذا كله حافظ اهلها على لغاتهم وعوائدهم ولم تقو امة من الامم الغالبة على ابتلاعهم
وتجنيصهم بجنسيتها وما زالوا كذلك حتى ظهرت الدعوة الاسلامية في بلاد العرب وجمعت كلمة
للقبائل هناك فاندفعوا ينتقمون البلدان ويخضعونها حتى افتتحو سوريا مع ما افتتحو ونشروا فيها
اللغة العربية فامتدت وتأصلت وامتصت اللغات التي كانت شائعة على اللسان آنثى في اقل
من قرن وذلك لانها كانت لغة الامة الفاتحة وبنت عم اللغات الأخر . فامتلك السوريون
بتوحيد لغتهم قوة عظيمة من قوى الارتقاء الجنسي

فنحن والحمد لله قوم لم لغة من اوسع اللغات ولقنها حتى قال فيها استاذ كبير من احدى
مدارس اميركا الجامعة انه اذا كان من حق لغة ما ان تعيش وتنتشر وتم المعمور لجودتها

والقان مشتقاتها بحيث يمكن التعبير بها عن كل معنى دقيق فتلك اللغة هي العربية
ولنا شيء من التعصبة ولا ينكر علينا أحد أننا اهل سعي وجد ولكن يؤخذ علينا أمور
كثيرة منها منك الى الترف رجالاً ونساء فقد تشبهنا بالاوربيين في انفاقهم ولم نعلم منهم
طرق الاقتصاد . ومنها بيتنا الى اللبر وقضاء الوقت الثمين في ما لا يجدي قترى الجماعات منا
مجمعين يلعبون بالورق أو بانطاولة والزهرا او بلهون بالاحاديث الفارغة . ومنها خوفنا من
المجاهرة بالحق والتجاؤنا الى المجاملة والاطراء . ومنها التعصب المذهبي الراسخ في نفوسنا حتى
غلبت الجامعات الدينية على كل جامعة جنسية او وطنية ولو في الدين لا ينكرون في مطالب
الدين يوماً في حياتهم . ولو كان لنا دين واحد لما كان في الامر بأس ولكن لنا اديان كثيرة
ومذاهب عديدة ففرقت بيننا الجامعات الدينية اشد تفريق

فاذا نزلنا على هذه النقائص فابعدنا عن الترف ولم نعد نخشى ان نظهر فقراء ولم نعد ننتظر
بالغنى اذا كنا فقراء واعتدنا طرق الاقتصاد وعرفنا قيمة الوقت حتى صرنا نحرص عليه حرص الخيل
على درهمه لا ننفقه جزافاً ولا نقتله مجادلة ومساومة او تلباس بما لا يجدي . واذا صرنا نجاهر
بالحق ولا نخدع الحاكم بالاطراء ولو كان لا يستحق الا اليوم . وفوق الكل اذا نزعنا التعصب
الديني وحبنا الناس كلهم اخواناً متساوين ولا يفاضلون بالتعصب المذهبي بل بالأعمال الصالحة
وصرنا تأبى الاصفاء الى كلام الاب او الام او الشيخ او القسيس اذا كنا نرى فيه تلوياً عن
جادة الحق واجماً بحق الانسانية وتديراً في الجامعة الوطنية واضعافاً للبيئة الاجتماعية —
اذا صرنا كذلك حق لنا ان ندعى امة من الامم الراقية مراقي النجاح

بقي علي كلمة خاتمة وهي ان البلاد لا تقوى لها قائمة الا بانتشار التعليم والتهديب على
الاصول الصحيحة التي توسع دائرة العقل والتصور وتعود الانسان على العمل والاكتساب .
ولا ينتشر التعليم بدون انتشار المدارس ولا تنتشر المدارس بدون اقبال الناس عليها ولا يقبل
الناس على المدارس ما لم يتنجسوا ويرغب غيبتهم . وطالما نرى التعليم مقصوراً على الافراد
القليين وليس سوى حفظ مفردات لغوية وحقائق تاريخية او انفاق التكلم بلغة اوروبية فما هو
بالتعليم المفيد واضراره في بلادنا أكثر من منافعه . اجارنا الله من كل من يزيد في تفريق
كلمتنا ويحمل على اضعاف جنيتنا

بولس الخولي